رواحل عبر التاريخ

كُتبت سنة (١٤١١هـ)

معارضة لقصيدة دعبل بن علي الخزاعي الشاعر العباسي الشيعي ، التي رثى بها آل البيت ، وذكر فضائلهم ، فأحسن ؛ ولكنه نال فيها أيضًا من كل ما هو رفيعٌ و شريفٌ ، حتى كأنه نال من كل رمزٍ من رموز المجد في تاريخنا :

(تجـــاوبنَ بالإِرْنـــانِ والزفـــراتِ
نـــوائحُ عُجْـــمُ اللفـــظِ والنَّطَقَـــاتِ)

فـأبدينَ من نـفسي الذي ليس بـاديًا
ســوى بالــذي أجــرينَ مــن عــبراتي

وذَكَّـــرْنَني عهـــدًا قـــديمًا مُوَاتِيًـــا
أُنَسِّيـهِ نفسي ، وهو في نَـفَساتي

فأشْرَعْنَ في نـفسي حنينًا ولَـوعــةً
يَشُـــقّان للذِّكْـــرَى دُجـــى الســـنوات

فـــأبحرتُ للـــماضي دُهـــورًا مديـــدةً
أُخـــالِفُ تيـــارَ الزمـــانِ الآتي

يجـــرُّ ســـفيني جاهـــدًا ، وأشـــقُّه
فيـــأبى عـــليّ (الآنُ) ذو العصَـــفاتِ

فشـاهدتُ عِـيرَ البـينِ تعـبرُ في النَّقـا
فشـــاهدتُ أعوامًـــا مـــن النكبـــات

وشـاهدتُها غابـت عـن العـين بعـدما
رأيـــتُ غيـــابَ الـــروح في جنبـــاتي

فَصِحْتُ بذاك الركب: عُودوا بمهجتي

فصــــاحت بي الأقـــدارُ مســـــتهزئاتِ

***

خلــيليّ لــو أيقظْــتُماني مِــن الــرُّؤى

رُؤًى حيّـــةٍ مـــن دون كـــلِّ حيـــاتي

ألا فاطْوِيـــا صَـــفْحًا ، فـــإنيَ دونهـــا

سأنبُـــشُ مـــن تاريخنـــا صـــفحاتِ

فـــإن كانـــت الـــذِّكرى بهاتيـــك حيـــةً

فهـــذي دمـــاءٌ حُـــرّةُ النبضـــات

***

وعـــودوا إلى تلـــك المـــواخرِ إنهـــا

تشـــقُّ عُبـــابَ الـــدّهر منهزمـــات

فعوجـــوا عـــلى عبـــد الحميـــد خليفـــةً

وقولـــوا : ســـلامٌ آخـــرَ الشَّـــمَخاتِ

وقولـــوا : ســـلامٌ آل عـــثمان إننـــا

ســنطوي علــيكم صــفحةَ الحسرــاتِ

فـــأنتم جـــراحٌ ثـــائراتٌ ، وقـــبلكم

بقلبـــيَ قَـــرْحٌ غـــائرُ النزفـــات

***

وعُـــدْ يـــا مـــدادَ المجـــد في صـــفحاتنا

فلـــن أُعْـــدَمَ النَّزَّفـــاتِ والزَّفـــرات

فقــفْ بــ(صلاح الــدين) قَبِّــلْ بأرضــه

دَبيبَ رجالِ النصر في العَرَصَات

ووَدِّعْ بذاك الساحِ (حِطّينَ) والعُلا

ووَقِّعْ على الذِّكرى : ألستَ بآتي؟!

***

ويَمِّمْ ببغدادٍ أنوفًا أشِمّةً

لِمَجْدِ بني العباس مُنْكَسِرات

وأصْغِ ، أبو تمامَ يُنشدُ دُرّةً

يُنَبِّئُ عن صِدْقِ الظُّبا الذَّرِبات

يحُاكي يتيمَ الدُّرّ ، فهو متوَّجٌ

بـ(معتِصمٍ) النجداتِ والنَّخَوات

وثَمَّ ارْقَ للميمون (هارونَ) والدِهم

(أمينٍ) و(مأمونٍ) عن النزوات

بقصرٍ منيفٍ عمَّ بالعدل ظِلُّهُ

وأَخْنَى حِماهُ الأنفسَ الخَنِعاتِ

فشَيَّدَ في نَفْسِ الفقيرِ بعدله

قُصورَ الرِّضا ، بالقَسْمِ مقتنعاتِ

فما ضارَهُ أنْ بات في عِزِّ قَصْرِه

وأضحتْ حدودُ الله محْتَكَماتِ

مُلوكًا يهابون المليكَ إلٰهَهم

وما ذلَّ مَلْكٌ ذلَّ للرحماتِ

إذا ذُكِّروا بالله فاضت دموعُهم

وما أوعظَ السلطانَ في الخشعاتِ

لهم في سبيل الله عزمٌ يُحِلُّهم

صدورَ الوغى والقلبَ في اللَّحَمات

تَبـارَقُ مـن بـين السـيوف ثُغـورُهم

تُـبشِّـرُ جيشَ الكُفْرِ بالـهَـزَمات

فـآبوا بِـبُشْراهم : فُلـولًا ، تحـيّرت

أبالسـيفِ نـالُوهم أم البَسَـمات

فقـد وطّـدوا للـدين عِلـمًا وقـوّةً

أدانـت ملـوكَ الأرضِ للسـطواتِ

يقولـون إن لاحـت إلـيهم غمامـةٌ :

«وغـيرُ بعيـدٍ كـلُّ مـا هـو آتي»

هنالـك فـانْزِفْ مـن مآقيـكَ حُـرَّةً

دمـوعَ بنـاتِ القلـب ، لا العـبراتِ

***

وعَجِّـلْ ، فـما قَضَّـيْتَ كـلَّ لُبانـةٍ

لقلـبٍ أُراه اسـتعجل النزفـاتِ

إلى موكـبٍ مـن آل حـربٍ أميـةٍ

إلى عبـد شـمس الفخـر منتسـباتِ

همُ الـمُلْكُ ، ما كانوا سوى ليُملَّكوا

فليسـت عـروشُ القـوم مبتَـدَعاتِ

لهـم سـببٌ مـن آل أحمـدَ موثَـقٌ

بـأوثقِ عقـدٍ مـن عُـرَى القربـات

أليسـوا هـمُ أصـهارَ آلِ محمـدٍ

ببنـت أبي سـفيان في الـحُجُرات

فـــدعْ عنـــك ، لا تأْبَـــهْ لـــردِّ مقالـــةٍ
تَـــقَلَّبُ بـــين الجهـــلِ والكَـــذِبات
وعَـــدِّ ، فـــلا تُشـــغلْ بهلهـــلِ نسْـــجِها
عـــن العـــزِّ في أردان ذي الـــحُرماتِ
معاويـــةِ الإســـلام ذي الحلـــم والتُّقـــى
تَغَشَّـــــاه ربي في رضى الرَّحمـــــاتِ
فيـــا مَلِـــكَ الإســـلام عَفْـــوًا فـــإنني
ســـأغرفُ مـــن بحـــر الثَّنـــا غرفـــاتِ
فقـــد زعمـــوا أن المثالـــبَ جمّـــةٌ
وقـــد كَـــبُرتْ مـــن فِـــيههم كلـــماتِ
ألســـتَ مـــن الصـــحْبِ الكـــرام بمنـــزلٍ
تَبـــوَّأْتَ فيـــه الأنجـــمَ الزَّهـــراتِ
فيـــا باصـــقًا ، يبغـــي النجـــومَ بنفثِـــه
أَنِلْـــتَ ســـوى في وجْهِـــكَ القَبَحـــاتِ
ثُكِلْـــتَ ! تقـــاصرْ عـــن نجـــومٍ زواهـــرٍ
فأنـــتَ غريـــقُ الوحـــلِ والقـــذَراتِ
تريـــدُ بلـــوغَ الـــنجمِ بـــالحَبْوِ للـــذُّرَى؟!
تريـــدُ بلـــوغَ الشـــمسِ بـــالخطوات؟!
تَـعَـثَّـــرْتَ في أولى خُطـــاكَ فأقْصِرَـــنْ
ألا لا أقـــــالَ الله ذي العثَـــــراتِ
تحـــاولُ نـــيلا مـــن صِـــحابِ محمـــدٍ؟!
وكـــــاتبِهم للـــــوحي والأزمـــــاتِ
ورافـــعِ رايـــاتِ الجهـــادِ خوافـــقٍ

تقــــودُ بحــــارَ اللُّــــجِّ واللجبــــاتِ

تُفَـــتِّحُ أمصــــارًا معًــــا وبصــــائرًا

وتَـهْـتِـكُ ظُـلْـمَ الشركِ والظُّـلُماتِ

فكــم مــن شــعوبٍ قُلِّـدتْ مِنْـهُ مِنَّـــةً

بــما زُحْزِحَــتْ عــن هُــوَّةِ الــدَّركاتِ

لـــه أجـــرُهم مـــا دام يـــومٌ وليلـــةٌ

بـــــما دَلَّـــــهم لله والصـــــلواتِ

ســـتُوقَفُ يـــا ذاك العَثُـــورُ أمامَـــه

بمُسْـــوَدِّ وجـــهِ الكـــافرِ الـــنَّعَماتِ

وتُســـأَلُ : مِـــنْ أَنَّـــىٰ تَـأَلَّـــيْتَ ضِلَّـــةً

على الله ؟! يا من يَحْجُرُ الرَّحماتِ

أمــا كــان يكفيــك الــذي قيــل فــيهمُ :

هُــــمْ أُمــــةٌ لله مُحْتَــــكِماتِ

فـــدعهم ودعنـــي إننـــي الآن مقبـــلٌ

أُوَدِّعُ بحـــــرًا قـــــاصيَ الجنبـــــاتِ

أودّعُــــــه أني رأيـــــتُ روافـــــدًا

لأبحُـــرِ فضـــلٍ أعجـــزتْ غرفـــاتي

***

وحُـثَّ مطايـا الـدَّهرِ ، إنـك موشـكٌ

عــلى قطــعِ أنفــاسٍ ومــوتِ بتــاتِ

فـما خَبَـبُ الـذِّكْرى لمـا أنـت مقبـلٌ

ســوى خَبَــبِ الآجــال نحــو حيــاتي

وها أنت قد أقبلتَ نحو ربوعهم

فأمسِـــكْ فــؤادًا ضـــجَّ بالخفقـــاتِ

فلســتَ بقــاضٍ حاجــةَ القلــب عُنــوةً

فـــما عـــاد في قلبـــي بقـــاءُ عَنـــاةِ

فـــشُمَّ ثـــرى هـــذي الربـــوعِ وضُـــمَّهُ

فقد يرتـضي الـوَلْهانُ بالـرَّشَفـــاتِ

وشُـــمَّ ثـــرى هـــذي الربـــوعِ وضُـــمَّهُ

وســـامي الثُّريّـــا في ثـــرى العَظَـــماتِ

فـــأين الثُّريّـــا مـــن شـــموسٍ تَضَـــوَّأتْ

فـــما غَربـــتْ أو أظلمـــتْ كَسِـــفاتِ؟!

يَمُـــدُّهمُ الـــرحمنُ بـــالنور والهُـــدى

فهـــمْ للـــدُّجى شـــمسٌ ونجـــمُ هُـــداةِ

عـلى راحَـتَيْ خـيرِ الخلائـقِ أشرقـوا

وفي عينِـــه أَغْفَـــوْا بخـــيرِ بَيـــاتِ

فقد شاهدوا عـصرَ النُّبُوَّةِ زاخرًا

وفي كَنَـــفِ المختـــارِ والسُّـــوْراتِ

يَعُبُّـــونَ مـــن وجـــهِ النبـــيّ وســـمتِه

فرضـــوانُ ربي فـــوق ذي القَسَـــمات

إذا لمحـــوا تلـــك الملامـــحَ أطرقـــوا

جـــلالًا ، ومَـــدُّوا القلـــبَ للنَّظَـــراتِ

ويُصْـــغُون بالألبـــابِ ، لا بمســـامعٍ

إلى شَـــــفَةٍ للرحمـــــةِ الـــــمُهْداةِ

فـــإن نَبَـــسَتْ ، فـــالخيرُ يُجْـــمَعُ كلُّـــه

عـــلى شَـــفَةٍ لم تنطِـــقْ بِشَـــفاةِ

يحُيطونــــه الأرواحَ – لله درُّهـــــم –

تُفَــــدِّيهِ ، بالأجســـــادِ مُزْدَرِيـــــاتِ

كــــأنهمُ إمّـــا نظــــرتَ إلــــيهمُ

عـــــــوالمُ أرواحٍ بغـــــــير ذواتِ

ولا عيــبَ في أجســادهم غــير أنهــا

نَواحِــلُ مــن صــومٍ ومــن صــلواتِ

فــإن أزّهــم نَــدْبُ الجهــادِ تــراهمُ

عمالقــــةَ الأجســـــادِ والعَزَمـــــاتِ

يكــادُ يــذوبُ الكفــرُ مــن نَظَــراتهم

حديـــدُ حـــداقٍ لا حديـــدُ ظُــــباةِ

وإني بِتَعْـــــدادِ المحامــــدِ فـــــيهمُ

لَمُعْـــتَرِضًا مـــا جـــاوَزَ القُــدُراتِ

فقــد أُنزلــتْ فــيهم مَثــانٍ ومصــحفٌ

يقـــومُ بـــه العُبّـــادُ في الهجعـــاتِ

يُرتّلُــــه قـــــومٌ يـــرون لحـــبّهم

أشــــدَّ عُـــــرًى تُــــدْنِيهمُ لنجـــاةِ

همُ القومُ ما شئتَ : افتخارًا وقُدوةً

وفي كــلِّ وجــهٍ خِــيرةُ الخِــيَراتِ

إذا ذُكِــروا هاجــتْ خــواطرُ جمّــةٌ

تَشُقُّ صَمِيمَ القلب بالحَسَرات

يُصّـــوِّرُهم فيـــه ضـــميرٌ معـــذَّبٌ

يلــوذُ بهــم مُــسْتَنْجِدَ الخَطَــراتِ

يـــذوقُ مريـــرَ الـــذُّلِّ وهـــو مُكَلَّــفٌ

بأســـلافه : أن يقتفـــي الـــخُطُواتِ

فيرنـــو إلى تلـــك المعـــارجِ آيِسًـــا

معـــــارجَ بالأمجــــادِ مُرْتَــــقَياتِ

تَسامَتْ على السبع السمواتِ كلِّها

إلى ظـــلّ عـــرش الله مُنتَـــهِياتِ

فيُغْضي بِطَرْفٍ خاسِئٍ مُتَحَسِّرٍ

لقلـــبٍ ذليـــلٍ راعِـــشِ الخفقـــاتِ

تَنـافَضَ حتـى مـا يَجُـرُّ سـوى أسًـى

ويَـــحْيا مَـــماةً دائـــمَ النَّـــزَعاتِ

أتحســـبُه حيًّـــا (وإن عـــاش حِقبـــةً)

إذا نـــبشَ التـــاريخَ ذا المَثُـــلاتِ

وعـــاشَ بـــه الأمجـــادَ قلبًـــا وقالبًـــا

يُقـــلّبُ نـــورًا ســـاطعَ الصـــفحاتِ

يُعـــانقُ مـــن تلـــك الحـــروفِ معانيًـــا

ويَلْـــثُمُ فيهـــا تلكـــمُ العَـــتباتِ

أيصـــحوا وقـــد ذاق الحيـــاة حقيقـــةً؟!

ليحيـــا حيـــاةً أُشربـــتْ بمـــماةِ

فدعني، سأسعى للحقيقة: إن تَكُنْ

حيـــاةً، وإلا فـــالمماتُ حيـــاتي